تمهيد:

يختلف الإنسان عن غيره من المخلوقات الأخرى، فهو الكائن الوحيد الذي حول الأصوات إلى لغة،وهو الكائن الذي تغلب على إكراه الحضور العيني للأشياء و اختزله في علامات وعن طريقها استطاع أن يتمثل ما غاب عنه[1]؛ وقد نالت العلامة حظها من الدراسة قديما في أبحاث الفلسفة والدلالة ولكنها في القرن العشرين صارت موضوع علم يطلق عليه السيميولوجيا. علم الأدلة السيميوطيقا السيميائيات،...

السيميائيات القديمة:

أ:الغرب

مع أن السيميائيات تبلورت في القرن العشرين وتشكلت مفرداتها التي لم تستقر،وتحددت مناهجها وإن لم تكتمل،إلا أن التفكير السيميائي قدم الإنسان ونحاول هنا أن نقدماجتهادات التفكير الإنساني ـ المقصودة ـ في المجال المعرفي للعلامة.

فالإرهاصات الأولى للتفكير السيميائي تعود إلى الفلسفة اليونانية القديمة وثقافات الأمم الغابرة (الصين، الهند والعرب المسلمين)؛حيث شكلت العلامة وعلاقتها بالمعنى هاجساً معرفياً راود المفكرين والفلاسفة القدماء منذ أن بدأ التأمل في طبيعة العلاقة القائمة بين اللغة والفكر، وبين الصور والأشياء من جهة وبين الكلمات والأشياء من جهة أخرى[2]".

يمكننا أن نرجع مصطلح السيميولوجيا إلى التراث الإغريقي، حيث اعتبرت السيميوطيقا بمثابة جزء من علم عام هو علم الطب؛وكان موضوعها هو دراسة عملية فحص الأمراض اعتماداً على أعراضها[3]. يشير "كاتسي كسوب" في كتابه "ابداعات النار"أن مصطلح السيمياء يشير إلى ممارسة سكندرية من الكيميا وهي كلمة عامة تدل على.ممارسة الكيمياء وتعني تقنية الجِرَفِيّين ...و تغذي الكيمياء العملية مثل الطب وعلم الفلزات● والفن، وقد تنبأ أرسطو بعد تفسيره للمادة بالتحول؛أي تغير إحدى المواد إلى مادة أخرى، وتباينت آراء السيميائيين بشأن الهدف من التحولات. ففي أكثر الأحيان كان الهدف إنتاج الذهب،ومع ذلك فقد يكون الهدف طبيا،وقد اختلفت أيضا تقنيات التحول: اتخذ بعض السيميائي طريقا عمليا وذلك بالذوبان والصهر والاتحاد والتقطير لكن البعض الآخر استخدم التعاويذ السحرية فقط [4]. لقد نشأ التفكير في العلامة ليس بقصد المعرفة كما نتصور بل بقصد التشكيك في المعرفة ورفض هيمنة معرفية معينة، وهنا يمكن أن نشير الى المدرسة الشكية ● التي بلغت أوجها في الاسكندرية في القرن الأول قبل الميلاد تحت راية الفيلسوف " إينيسيديموس . Aenesidemus" الذي استقي صيغه البحثية من تحليل العلامات ، وتصنيفها عند الناقد البلاغي شيشرون (Cicero) وكان معاصرًا له حيث ميز بين العلامة العامة والعلامة الخاصة،فلا ينبغي أن نفترض أنّ ما يقنعنا هو صحيح في الواقع؛لأنّ الشيء نفسه قد لا يقنع الجميع، ولا حتى الأشخاص ذاتهم دائمًا. يتوقّف الإقناع أحيانًا على الظروف الخارجيّة، على سمعة

المتكلم، على قدرته كمفكّر أو على براعته، وعلى المعرفة بالموضوع وعلى ما فيه من جاذبيّة .[5]

وقد اشتهر إينيسيديموس بوضعه للمبادئ العشرة• التي يبين فيها استحالة المعرفة،[6] ويريد أن يصل بهذه القضايا العشر إلى القول بأن العلم بِكُنْه الأشياء لا يمكن؛لأن ما عندنا من الوسائل لا يُمَكِّنُنا من ذلك.

ونجد مصطلح Sémiotike" في اللغة الأفلاطونية إلى جانب نحو"grammatike الذي يعني تعلم القراءة والكتابة، ومندمج مع الفلسفة أو فن التفكير ...ولم يكن هدفها إلا تصنيف علامات الفكر لتوجيهها في منطق فلسفي شامل...وتنصهر مع ما نسميه بالمنطق الصوري.[7]

أما أفلاطون فقد شكلت تأملاته الفلسفية المثالية في مسألة اللغة، والتي تميز بين الأفكار والحقيقة المحسوسة،إرهاصاً أولياً للسيميوطيقا،غير أن أرسطو قد تجاوز الفلسفةالأفلاطونية مؤسساً لفكر سيميائي يستمد مرجعيته من المنطق والرياضيات ومستبدلاً فكرة المثل العليا لأفلاطون بفكرة المفهوم، مما جعله يطابق بين الفكرة والمعنى أو بين المعنى والجوهر.[8]

ويعد الطبيب جالينوس اليوناني(القرن الثاني الميلادي) أول من استعمل مصطلح Sémiotike" في ميدان الطب.فهو يعتبر أن أصل هذه اللفظة Sémiotike يوناني وهو علم الأعراض في الطب،[9] وقد ميز بين العلامات العامة التي تدل على أكثر من شيء والعلامات الخاصة التي تدل على شيء محدد.[10]

ويعدالرواقيون(القرن الثالث قبل الميلاد)هم أول من قال بأن العلامة لها جانبان هما:الدال والمدلول وارتكزت السيميائيات المعاصرة على اكتشافاتهم الأولى [11]من خلال اكتشافهم لذلك الاختلاف القائم بين أصوات اللغات وحروفها (شكلها الخارجي)، الذي قد يؤدي إلى مرجعيات ومدلولات متماثلة تقريبا . وما قدموه من تمييز بين الدالة العقلية، والحسية،والتأكيد على علاقة الالتزام التي يتحكم بصلة الدال ، بمدلوله.[12] لقد قسم الرواقيون الفلسفة إلى الأخلاق والعلم الطبيعي والمنطق،وقسموا المنطق إلى البلاغة والجدل،والجدل إلى نظريتي الدال والمدلول، كما يوضحه الشكل الآتي[13]:

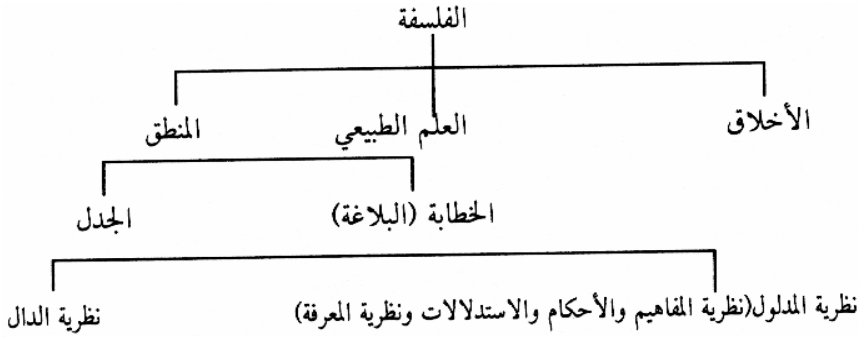

" لقد اعتنى الرواقيون في نظرية العلامات بالأحكام الشرطية مرورا بالعلاقة الإلزامية، لكن هذه الموضوعات ليست كلها للإدراك المباشر ولا يتم إدراكها بالحواس دوما، ويمكن التعرف

عليها بالعلامات الدالة وهو انتقال إلى معاينة الواقع وفي هذه الحالة تُسْتَدعى من حال الغيبة إلى الحضور عن طريق العلامات القرينية التي تستجيب إلى مسلك العلة القائم بين العلامات والأشياءمثل : النفس علة الحركة.[14]

وإذا انتقلنا إلى مرحلة العصور الوسطى يأتي القديس **أوغستين** بتحليلات وتأويلات للنصوص المسيحية المقدسة تأسيساً حقيقياً لنظرية عامة للعلامات اللسانية وغير اللسانية، وهو أول من طرح السؤال: ماذا يعني أن نفسر ونؤول؟ [15] وهو اهتمام بآليات المعنى في العلامات اللغوية.

كما نذكر من عصر النهضة جهود الفيلسوف الألماني **لايبنتز** الذي تعامل مع الفكر على أنه موضوع سيميائي،ووضع تصورات سيميائية ناضجة في كتابه "فن التركيب" DeArte Combinatoria تشمل المقتضيات الأخلاقية والوجودية والابستمولوجية ورسم في كتابه مشروعا ضخما لتأسيس المنطق الرمزي الحديث، وهذا الأمر جعله مقتنعا بوجود لغة كونية (رياضياتية) تتشكل من عدد قليل من العلامات قادرة على تعيين جميع المفاهيم والتصورات والأفكار الممكنة[16].

وفي عصر الأنوار يمكن أن نذكر اسم **أبيلاروروجي** بيكون الذي نظر إلى اللغة على أنها منظومة سيميائية، ثم جاءت مرحلة أخرى مثلها المفكرون الألمان والإنجليز في القرن السابع عشر، ويمكن أن نذكر الفيلسوف الإنجليزي **جون لوك** الذي يعد أول من استعمل مصطلح سيميوتيقا sémiotic بعد اليونان – في كتابه (مقال حول الفهم البشري) الذي رأى فيه انه لا يمكن الوصول إلى الماهية الحقيقة للأشياء؛ لهذا نلجأ لإعطائها ماهية اسمية (علامات لغوية) بالاعتماد على بعض خصائصها.[17]

هذا بالإضافة إلى جهود جماعة **بور رويال** في حديثها عن نظرية العلامة من حيث علاقة الأفكار والأشياء، وكذا الأفكار والعلامات من جانب آخر، بيد أن هذا العلم لم يوصف بكونه علما عاما للعلامات يحوي بداخله جميع الأنساق الدالة إلا في القرن العشرين، على يد عالمين أحدهما ينتمي إلى الثقافة الأوروبية هو السويسري فردينان دو سوسير (1857-1913)الذي أطلق عليه مصطلح السيميولوجيا" Sémiologie"معتبرا اللسانيات فرعا منه. والآخر ينتمي إلى الثقافة الأنجلوسكسونية هو الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرس بورس (1839-1914) الذي سماه السيميوطيقا"Semiotique" باعتباره علما ينبع من المنطق والفلسفة.

---

[1] سعيد بنكراد، مجلة عالم الفكر،ع3،مج35 ،2007،ص:07

[2] يظر: أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص: 19.

[3] أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط، د ت، 1987، ص: 30

• **علم الفلزات** أو **علم التعدين** هو العلم المختص بدراسة السلوك الفيزيائي والكيميائي للعناصر الفلزية ومركباتها ومخاليطها التي تسمى بالسبائك، والتي تختلف في خواصها عن خواص العناصر المكونة لها، للاستفادة من بعض الخصائص التي لا يمكن

تواجدها في عنصر واحد. ويعتمد هذا العلم وتطبيقاته بالدرجة الأولى علي تغير حالة السبائك وأطوارها مع تغير درجة الحرارة أو الضغط أو كليهما. تتجمع المعلومات السابقة وغيرها في منحنيات الأطوار.

[4] كاتسي كسوب،ابداعات النار،تر:فتح الله الشيخ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب والفنون ،الكويت،2010 سلسلة عالم المعرفة،رقم،266،ص:41،42.

• الشك كلمة يُراد بها المذهب القائل بأن معرفة الحقائق في هذا العالم لا يمكن الوصول إليها، أو يُشك في الوصول إليها، فهو مذهب هادم للفلسفة؛ لأن الفلسفة ليست إلا السعي لمعرفة حقائق هذا الكون — ومذهب الشك هذا ظهر في عصور مختلفة في تاريخ الفلسفة، ينظر: أحمد أمين، و زكي نجيب محمود، «قصة الفلسفة اليونانية»،مؤسسة هنداوي ،2017،ص:187.

5 ـ مايلز فريدريك بورنيت، هل يمكن للشكّاك أن يعيش شكّه . بحث في أثر الفكرة على نفس صاحبها ـ تر: **طارق عسيلي**، الاستغراب ، المركز إلسالمي للدراسات االستراتيجية ،بيروت، ع18،2020،ص:20.

• 1. إن شعور الأحياء وإدراكهم الحسي للأشياء يختلف.2. الناس يختلفون طبيعيًّا وعقليًّا، وهذا الاختلاف يجعل الأشياء تظهر أمامهم بمظاهر مختلفة. 3. اختلاف الحواس يسبب اختلاف تأثرها بالأشياء.4. إن إدراكنا للأشياء يعتمد على حالتنا العقلية والطبيعية وقت إدراكنا. 5. إن الأشياء تظهر بمظاهر مختلفة في الأوضاع المختلفة وعلى المسافات المختلفة.6. إدراكنا الحسي للأشياء ليس إدراكًا مباشرًا بل بواسطة، فمثلًا نحن ننظر إلى الأشياء وقد توسط بينها وبين حواسنا الهواء.7. تختلف مظاهر الأشياء باختلاف كميتها ولونها وحركتها ودرجة حرارتها.8. يختلف تأثرنا بالشيء بمقدار إلفنا وعدم إلفنا له.9. كل ما نزعمه من المعلومات محمول على موضوع، وكل هذه المحمولات ليست إلا علاقات بين بعض الأشياء وبعض أو بينها وبين أنفسنا، وليست تخبرنا بحقيقة الأشياء ذاتها.10. آراء الناس وعرفهم يختلف باختلاف البلاد.

6ـ أحمد أمين، و زكي نجيب محمود، «قصة الفلسفة اليونانية»، ط2، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1935م، ص 305 إلى 311. ص:190

[7] برنار توسان،ماهي السيميولوجيا،تر: محمد نظيف،افريقيا الشرق،ط2000،2، ص:37.

[8] يظر: أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة، المرجع السابق، ص: 19،21.

[9] داسكال مارسيليو،الاتجهات السيميولوجية المعاصرة،تر: حميد لحمداني،وآخرون،دار افريقيا الشرق،الدار البيضاء ،المغرب، ط1، 1987، ص:4.

[10] سيزا قاسم ،ناصر حامد أبو زيد، أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، ص:15.

[11] أريفيه (ميشال)، جان (كلود جيرو)، بانييه (لوي)، كورتيس (جوزيف)، السيميائية اصولها وقواعدها،تر:رشيد بن مالك،منشورات الاختلاف،الجزائر،2002،ص:21.

12 ينظر شريم (جوزيف (التعين والتضمين في علم الادلة، الفكر العربي المعاصر ع 18و1982،19، ص79.

[13] ينظر:أحمد يوسف ،الدلالات المفتوحة،ص:26.

[14] أحمد يوسف ،الدلالات المفتوحة، ص34،35.

[15] أريفيه ، جيرو، بانييه ،كورتيس ، السيميائية أصولها وقواعدها،تر:رشيد بن مالك،منشورات الاختلاف،الجزائر،2002،ص:22.

[16] عبد الواحد مرابط،السيمياء العامة وسيمياء الأدب،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2010،1،ص:30.

[17] نفسه،ص:30.